في الديمقراطية الحقة، المعززة بادعاءات العلمية، يقوم التنوير بهذا المعنى بتحرير وتشريع ما فعله «دي ساد»[1].

يرى مفكرو حركة التنوير أن كل فكرة يمكن أن ترد إلى وقائع أو إحساسات فيزيائية. وأنه يجب إزالة العوائق التي تقف في طريق ثقافة وتقدم الإنسانية وفقًا للنموذج الذي تقدمه العلوم الفيزيائية والبيولوجية. وعند البعض أن الأيدلوجية الكامنة مادية، ملحدة وعلمية بشكل حتمي، وهي تكتشف أن العلوم الاجتماعية والنفسية منابع النشاط البشري تكون في الواقع هي البحث عن السعادة وتجنب الألم. كما أكد البعض القيمة العليا للرياضيات، فكان قدر البشر إعادة تأسيس حقوق وكرامة طبيعة من خلال إيجاد الفردوس التي يعرف العقل فيها كيفية الإبداع. وأقرو أن كل العالم بما في ذلك الإنسان عبارة عن آلة. و العقل هو المخ فحسب، هو جزء من الجسم الإنساني.

وهذا ما دعا "أو'هير" للتساؤل؛ كيف يمكن القول بأننا أحرار في أفكارنا، إن كان كل ما نقوم به محددًا من خلال قوى لا تعرف شيئًا عن الحقيقة أو العقل. فلا يمكن الأخلاق أن تحيا بمجرد قبول القول بأن السعادة والألم هما المقرران الوحيدان للنشاط البشري. ليس هناك خيرًا أو شراً، ليس هناك سعادة أحسن من أخرى، ووضح أن هذا ما يجعلنا بمعزل عن إيجاد أساس ثابت. فكيف يمكن القول بأن كل ما يمكننا التمسك به هو الخبرة اللحظية. وهنا يتفق الباحث مع "أو'هير" ، فمحاولة اختزال الأخلاق في الشعور بالسعادة والألم والانتصار لقوانين العلم والفيزياء أمر مرفوض، فلا يمكن اختصار المجتمع الإنساني كله في مجموعة من القوانين الفيزيائية الصارمة.

تعقيب:

في طرح "أو'هير" لرؤيته لعصر التنوير، وجد أن تلك النظرة العلمية أثرت على بصائرنا واعتقاداتنا الأكثر قيمة. مما أحكم الخناق علينا. كما أنه كيف للأخلاق أن تحيا في عالم تحكمه السعادة والألم وكيف يساعد هذا النشاط البشري أن يسير في طريقة دونما تخبط أو هلاك. مما يقودنا إلى أن هناك أهداف في الحياة أعلى من خلق السعادة وتجنب الألم.

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.24

كيف يمكن أن نكون أحرار إذا كان كل ما نقوم به محدد من قبل قوى مجحفة، ففي محاولة تلك القوى بوضع أساس ثابت، هي في الحقيقة تجعلنا بمعزل عن إيجاد أساس ثابت؛ فكل ما يمكننا التمسك به هو الخبرة اللحظية. إن المذهب العلمي هو تشويه للأخلاق، الجمال، البعد الديني.

من ناحية أخرى، كيف يمكننا تجاهل ما قدمه العلم من إنجاز في حياتنا اليومية ومن رفاهية لا يمكننا غض الطرف عنها، بأي حال من الأحوال؟ لا ينظر "أو هير" لكل ما يقدم العلم لنا على أنه إجحاف وتقييد، ولا لكل ما يخرج عن إطار العلم من دين، قيم أخلاقية وجمالية، على أنها خرافة. فلا يمكننا الخروج على العلم في سبيل الإنسانية، ولا يمكننا الخروج على الإنسانية في سبيل العلم؛ لكن من الأفضل أن نجد التوازن بين العلم وما يعبر عن إنسانيتنا.